مراجعة كتاب

الدعوة إلى الإسلام
للمستشرق البريطاني سير توماس أرنولد

عماد الدين خليل*

أولاً: الانتشار والتعامل مع الآخر

يُعدّ هذا الكتاب[1] وثيقة تاريخية قيّمة عن انتشار الإسلام، ولعّلها تكون أهمّ وثيقة إذا تذكرنا أن مؤلفها لم يكن مسلماً، وإذا لاحظنا غزارة مادتها، وغنى المصادر والمراجع المعتمدة فيها وتنوعها، ودقّة التوثيق الذي عوملت به هذه المادة. بل إذا لاحظنا أن معظم ما كتب عن هذا الموضوع كاد أن ينحرف عن الجادة، وأن يتعامل مع الظاهرة بمعطيات مسبقة، الحقت بالوقائع التاريخية الكثير من التزييف والتحريف وسوء التفسير.

ثم ها هو كتاب أرنولد يجيء –على ما فيه من عثرات وهفوات– لكي يردّ الأمر إلى نصابه، ويقف شاهداً علمياً متفرداً على الدوافع والأسباب الحقيقية لانتشار الإسلام، والصيغ التي انتشر بواسطتها، والنتائج التي تمخضت عن هذا كله.

توماس أرنولد (1864–1930م) من كبار المستشرقين البريطانيين، تعلّم في كمبردج، وقضى عدة سنوات في الهند أستاذا للفلسفة في كليّة عليكرة الإسلامية. وهو أول من جلس على كرسي الأستاذية في قسم الدراسات العربية في مدرسة اللغات الشرقية بلندن. وصفه المستشرق البريطاني المعروف (سير هاملتون جب) بأنه "عالم

* أستاذ التاريخ الإسلامي في جامعة الموصل emadkhaleel@yahoo.com

[1] أرنولد، توماس. الدعوة إلى الإسلامي، ترجمة وتعليق د.حسن إبراهيم حسن ورفاقه، الطبعة الثالثة، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة – 1971 م.

دقيق فيما يكتب.. وأن معرفته بالإسلام ترفع أقواله فوق مستوى الشبهات"[2]. ذاع صيته بكتابيه (الدعوة إلى الإسلام) الذي ترجم إلى أكثر من لغة، و (الخلافة) الذي ينطوي على أخطاء واستنتاجات لا يمكن التسليم بها، كما أنه نشر عدة كتب قيّمة عن الفن الإسلامي، وأشرف على تنسيق وإخراج الكتاب المشهور (تراث الإسلام) الذي ترجم إلى العربية.

وقد تبيّن لنا، عبر فحص المادة الغزيرة للكتاب، والتي تغطي مساحة مكانية كبيرة، هي عالم الإسلام كلّه، بما فيه المساحات التي انحسر عنها فيما بعد، وتمتد لفترات زمنية متطاولة تبدأ مع ظهور الإسلام، وتستمر لكي تطلّ على العصر الراهن، أن الأسباب الرئيسية التي مكنت لظاهرة انتشار الإسلام من التحقّق، يمكن أن تنضفر في ثماني قنوات أساسية، ستكون مجال متابعتنا عبر هذه الصفحات، وسوف نضطر إلى التقاطع مع المنهج الجغرافي الذي اعتمده أرنولد في عرض مادته، من أجل تغذية هذه القنوات بالشاهد التاريخي، بغض النظر عن تسلسله المكاني أو حتى الزمني.

1- حماسة الدعاة:

يقول أرنولد: "إن الذي دفع المسلمين إلى أن يحملوا رسالة الإسلام معهم إلى شعوب البلاد التي دخلوها، وجعلهم ينشدون - بحق - مكانا بين ما نسميّه أديان الرسالة، انما هو صدق عقيدتهم. وليس موضوع هذا الكتاب: (الدعوة إلى الإسلام) إلاّ صورة من تاريخ ظهور هذه الحماسة في تبليغ الدعوة ودوافعها وألوان نشاطها. وأن انتشار مائتي مليون مسلم في الوقت الحاضر[3]، لهو الشاهد على ما لهذه الحماسة من أثر خلال الثلاثة عشر قرنا التي تلت ظهور الإسلام"[4].

---

[2] دراسات في حضارة الإسلام، تحرير ستانفورد شو ووليم بولك، ترجمة د. إحسان عباس ورفاقه، دار العلم للملايين، بيروت - 1964 م، ص 244.

[3] كان ذلك زمن تأليف توماس أرنولد كتابه (الدعوة إلى الإسلام) في أواخر القرن التاسع عشر، أما الآن فقد زاد هذا العدد إلى ستة أضعافه.

[4] الدعوة إلى الإسلام، ص 25.

وهو يؤكد دور الدعاة في انتشار الإسلام في نصّ آخر يقول فيه: " يرجع انتشار هذا الدين في تلك الرقعة الفسيحة من الأرض، إلى أسباب شتى: اجتماعية وسياسية ودينية، على أن هنالك عاملاً من أقوى العوامل الفعالة التي أدّت إلى هذه النتيجة العظيمة، تلك هي الأعمال المطردة التي قام بها دعاة من المسلمين، وقفوا حياتهم على الدعوة إلى الإسلام، متخذين من هدي الرسول [صلى الله عليه وسلم] مثلاً أعلى وقدوة صالحة "[5].

إن انتشار الإسلام كظاهرة تاريخية، لا يمكن أن يتأتى عن عامل واحد، وإنّ التفسير الأحادي لظاهرة كهذه يخفق أشد ما يخفق، لأنه يتجاهل عوامل عديدة منظورة ومؤكدة، وهكذا سنجد كيف أن كتاب (أرنولد) يكسب قيمته –من بين أمور منهجية عديدة أخرى– من تجاوزه الرؤية الأحادية في البحث عن الأسباب، ومتابعة الوقائع نفسها واستنطاقها، حيث يتبين أن ظاهرة الانتشار لا ترتكن إلى عامل واحد بأي شكل من الأشكال.

إذن، فإن تسليط الضوء على دور الفرد في هذه الظاهرة، أي دور الداعية، بقدر ما هو احترام للوقائع نفسها، كما تشكلت –فعلاً– ومارست دورها، بقدر ما هو – في الوقت نفسه– تعبير عن رغبة (أرنولد) في وضع يده على كل العوامل التي صاغت هذه الظاهرة، بما فيها دور الفرد الذي تكاد تضيّعه، أو تجحفه على أقل تقدير، معظم نظريات التفسير الحديثة والمعاصرة. وأرنولد –كعادته– يتابع هذا الدور في صيغه المتنوعة، وامتداداته المتشعبة في الزمن والمكان والفاعلية.

في أسبانيا –مثلاً– يشير إلى "جهود واضحة بذلت" في سبيل تحويل المسيحيين عن عقائدهم، وإلى أن هذه الجهود "أدّت إلى ما هو أكثر من مجرّد التقارب والاتصال، كما أنها سرعان ما عملت على زيادة الداخلين في الإسلام، الذين ألّفوا جماعات كبيرة، وأصبحوا بلا شك أغلبية سكان البلاد "[6].

---

[5] المرجع نفسه، ص 27.

[6] الدعوة إلى الإسلام ، ص 163.

في أوروبا الشرقية بذل الدعاة الأتراك جهوداً متواصلة لنشر الإسلام، يصفها أرنولد بأنها " تنطوي على الغيرة والحماسة الدينية في اكتساب مسلمين جدد "، وأن حالة المجتمع المسيحي هناك جعلت هذه الجهود " أشد أثرا وأعظم قيمة "[7].

في روسيا، في القرن التاسع عشر، كان القانون الجنائي الروسي يعاقب كل شخص تثبت عليه تهمة تحويل مسيحي إلى الإسلام، بتجريده من كافة الحقوق المدنية، وبحبسه مع الأشغال الشاقة مدة تتراوح بين ثماني سنين وعشر، وبرغم هذا "نجحت الدعاية الإسلامية في جذب قرى بأسرها إلى عقيدة الإسلام، لاسيما القبائل الروسية التي تقيم في الشمال الشرقي."[8] وفي مدينة قزان، المركز الرئيسي لنشاط هذه الدعوة، كان يطبع في كل سنة عدد كبير من المنشورات الإسلامية، ويذهب الدعاة من الجامعة لتحويل الوثنيين في القرى، وإعادة التتار الذين كانوا قد ارتضوا التعميد، إلى الإسلام. وقد أثار ازدياد عدد هؤلاء العائدين إلى الإسلام، الفزع في صفوف رجال الكنيسة الأرثوذوكسية" ولكن جهودهم قد أخفقت في وقف نجاح الدعاة في هذه السبيل. وقد دونت الأخبار كثيراً عن دخول الناس في هذا الدين أفواجا، ولاسيما على أثر صدور مرسوم حرية التدين في سنة 1905م." [9]

في إفريقيا، يصف شخص زنجي الفارق بين الطريقتين اللتين تتعامل بهما كل من المسيحية والإسلام مع الإفريقيين، بالعبارات التالية:

"بينما تنسّب البعوث التبشيرية قيام قساوسة من الوطنيين إلى عصر غير معيّن، نجد الدعاة المسلمين ينفذون إلى قلب إفريقية، ويصلون في سهولة إلى الوثنيين، ويحوّلونهم إلى الإسلام."[10]

والداعية المسلم في إفريقيا يحمل دائماً الثقة في الاستجابة السريعة، فهو يستطيع أن يمدّ الزنوج غير المتحضرين "بكثير من الحقائق المتعلقة بالله والإنسان، تصل إلى القلب

---

[7] المرجع نفسه، ص 185 - 186.

[8] المرجع نفسه، ص 279 - 280.

[9] المرجع نفسه، ص 280.

[10] المرجع نفسه، ص 394 - 395، هامش رقم 2.

وتنمّي الإدراك. بل يستطيع إلى جانب ذلك أن يمنحهم ترخيصاً بالدخول في وحدة اجتماعية سياسية تخوّلهم حق الحماية والمساعدة في مسافة تمتد من المحيط الأطلسي إلى سور الصين.. ولقد كان عدد المتحوّلين إلى الإسلام كبيراً، وسريعاً، في التحوّل، وذلك لسبب واضح هو أن الداعي المسلم كان منذ اللحظة الأولى التي يعترف فيها المتحوّل إلى الإسلام بالعقيدة، يسير سيراً عملياً على المبادئ القائمة على إخاء المؤمنين جميعا وتساويهم أمام الله.."[11]

في العصر المغولي، يستنتج أرنولد من ظاهرة انتماء الغالبين إلى دين المقهورين، أنه "لابدّ أن يكون هناك كثير من أنصار النبي [صلى الله عليه وسلم] قد انتشروا في طول امبراطورية المغول وعرضها، مجاهدين في طيّ الخفاء، لجذب الكفار إلى حظيرة الإسلام "[12].

ويعلّق أرنولد على النتائج الكبيرة التي حققها الدعاة في نشر الإسلام قائلاً بأنه "مهما تكن المبالغة عظيمة في القول، ومهما ردّد الباحثون القول بأن كل مسلم داعية إلى دينه، يبقى هذا القول صحيحاً. وفي الحق أن قليلاً من المسلمين المتمسكين بدينهم تمسكا صحيحا، الذين يتصلون بالكفار يومياً، يهملون ما أوصاهم به نبيّهم [صلى الله عليه وسلم] من الدعوة إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة. ومن ثم نجد إلى جانب أرباب الدعوة المحترفين – وهم المسلمون الدينيون الذين كرسوا وقتهم ونواحي نشاطهم كله في مهمة الدعوة – أخباراً تاريخية لنشر العقيدة الإسلامية تتضمن سجلاً بأسماء رجال ونساء من جميع طبقات المجتمع، من الملك إلى الفلاح، ومن كل الصنائع والحرف، قاموا بأعمال ابتغاء نشر دينهم. والتاجر المسلم، على خلاف أخيه المسيحي، يظهر بنوع خاص بمظهر النشاط في أمثال تلك الأعمال"[13].

وفي مكان آخر يعود أرنولد لكي يؤكد دور المرأة المسلمة، كداعية لنشر الإسلام

---

[11] المرجع نفسه، ص 393 – 394.

[12] الدعوة إلى الإسلام ، ص 258.

[13] المرجع نفسه، ص 449 – 450. وينظر: المرجع نفسه، ص 451، 453 – 454، وكذلك هامش رقم 3 من الصفحة 386 من المرجع نفسه.

"مما يثير اهتمامنا ما نلاحظه من أن نشر الإسلام ليس من عمل الرجال وحدهم، بل لقد قامت النساء المسلمات أيضاً بنصيبهن في هذه المهمة الدينية."[14] وهي شهادة ذات قيمة بالغة لأنها تؤكد حضور المرأة المسلمة في واحدة من أهم الأنشطة الحيوية في الحياة الإسلامية، وتدحض الأكذوبة التي ادّعت بأن الإسلام دفع المرأة إلى الانزواء عن الحياة العامة.

2- القدوة والالتزام:

ذلك هو العامل الفعّال الآخر في انتشار الإسلام.. ولا يكاد أحد يماري في أن الدعوة، أية دعوة، لن يكون بمقدورها أن تتواصل مع الآخرين بالشكل المطلوب، وتجذبهم إلى ساحتها، ما لم يكن الدعاة أنفسهم يمتلكون -على الأقل- حدّاً أدنى من التوحّد بين مفردات سلوكهم وبين مطالب العقيدة التي يدعون إليها.

إن أي شرخ أو ازدواج بين الداعية والعقيدة التي ينتمي إليها، سوف ينعكس سلباً، وبكل تأكيد، على قدرته في دعوة الآخرين، وبالتالي انتشار قناعاته بين الناس.. إذ كيف سيتاح لهذه القناعات الانتشار المطلوب، والمدعوون إليها يلمسون بأنفسهم أن أصحابها لا يقدرون على الالتزام بها وتحويلها إلى سلوك يومي معيش؟

من أجل هذا أكد الإسلام في كتاب الله وسنة نبيه ﷺ على مسألة التوحّد هذه واعتبرها واحدة من أهم المؤشرات على جدية المسلم، وتنفيذه لأمر الله، وطاعته لرسوله ﷺ.. ومن أجل هذا أيضاً قدر الدعاة المسلمون المتوحّدون في فكرهم وعملهم، بين ما يدعون إليه وما يمارسونه لحظة بلحظة، ويوما بيوم.. أولئك الذين ما عرفوا في الأعم الأغلب أيما قدر من الازدواجية والشروخ بين عقيدتهم وواقعهم.. قدروا على أن يكسبوا إلى صفّ الإسلام آلاف الناس، بل ملايينهم، دون أن يكون الأمر مبالغة أو تهويلا.

وعلى خلاف النصرانية التي تضع بين الإنسان وخالقه كهنوتية تمتص -إذا صحّ التعبير- إحساسه بالمسؤولية، نجد الإسلام يلغي أية وساطة بين المسلم وربّه، الأمر

[14] المرجع نفسه، ص 451، وتنظر بعض التفاصيل في المرجع نفسه، ص 451 - 453.

الذي يجعل مسؤولية خلاصه الشخصي -كما يقول أرنولد- "ملقاة على كاهله وحده، وكان من أثر ذلك أن أصبح المسلم، كما جرت العادة، أكثر تشدداً واهتماما في أداء واجباته الدينية، وأشدّ تحملاً للمتاعب في سبيل تعلّم مبادئ دينه وشعائره، وبذلك يؤثر، وقد رسخت في ذهنه أهمية هذه المبادئ وتلك الشعائر لنفسه، أن يصبح رمزاً لخلق الداعي إلى دينه بين يدي الكافر.." [15]

إن هذا التوحّد الأخلاقي المؤثر، يتجاوز نطاق الأفراد إلى الجماعات، بل إلى المجتمعات الإسلامية على مداها، فتغدو بسلوكيتها هذه، وبالتزامها، قدوة مشعّة، ومصدر جذب لهذا الدين: "لا مراء -يقول أرنولد- في أن كثيراً من المسيحيين -في عصور شتى- اتصلوا بمجتمع إسلامي حيّ، وتأثروا تأثرا عميقاً بما تجلى في هذا المجتمع من فضائل. وإذا كانت هذه الفضائل قد أثرت كذلك في الرحالة وفي الغريب، فلا شك في أنه كان لها بعض التأثير في جذب الكافر الذي أصبح يتصل بهم اتصالاً يومياً.. وأدب الصليبيين غني بمثل هذا التقدير للفضائل الإسلامية.." [16]

وهو يشير في مكان آخر إلى أن هذا التقدير لفضائل الخصم لم يقف عند حدود التقليد للعادات وأساليب الحياة، وتقبل الأفكار "وتكوين رأي أكثر إنصافاً عن ديانة المسلمين " بل تجاوز ذلك إلى انجذاب الكثيرين إلى حظيرة الإسلام. وكان عدد المرتدين عن المسيحية في القرن الثاني عشر الميلادي كثيرا كثرة نلاحظها في سجلات الصليبيين القانونية."[17]

وما حدث في العصور الصليبية، وما سوف يحدث في إفريقيا، وجنوب شرقي آسيا، حدث كذلك في أوروبا الشرقية خلال العصر العثماني: وكثيراً ما قدم الكتاب المسيحيون الذين لا يكنّون للعثمانيين محبة ولا ودّاً، المدح والثناء على فضائلهم. فمن ذلك ما يقوله الكسندر روس (.. في الحق لو قرأ المسيحيون باهتمام شريعة المسلمين وتاريخهم وتدبّروها، لاستولى عليهم الحياء حين يشاهدون إلى أي حدّ هؤلاء المسلمون

[15] الدعوة إلى الإسلام، ص 450.
[16] المرجع نفسه، ص 467 - 468.
[17] المرجع نفسه، ص 109 - 110.

ذوو غيرة على عبادتهم وتقواهم وتعبّدهم، وإلى أي حدّ هم متفانون في إخلاصهم، قانتون في مساجدهم، وإلى أي حد مطيعون لرئيسهم الروحي، حتى أن التركي العظيم نفسه لا يحاول أمراً إلاّ بعد مشورة المفتي، وإلى أي حدّ هم مهتمون بمراعاة أوقات الصلوات الخمس في كل يوم، حيث وجدوا، وأيا كانت مشاغلهم. ما أشدّ مراعاتهم دائماً لصومهم من الصباح حتى المساء طول أيام الشهر بلا انقطاع، وما أكثر توادّ المسلمين وتراحمهم، وما أعظم ما يرى من عنايتهم بالغرباء في نزلهم، سواء بالفقير أو النازح المسافر ! لو تأملنا عدالتهم ونزاهتهم، وسائر فضائلهم الخلقية، لخجلنا من جمودنا، سواء في عبادتنا أو في تراحمنا، ومن جورنا وإفراطنا وتعسّفنا، فلا ريب أن هؤلاء الناس سيقيمون الحجة علينا، ولا شك أن عبادتهم وتقواهم وأعمال الرحمة فيهم، هي الأسباب الرئيسية لنمو الدعوة المحمدية." [18]

وينقل أرنولد عن أحد المؤرخين المحدثين استنتاجاً يؤكد النصّ السابق، وذلك في قوله اننا "نجد كثيرين من الإغريق، من ذوي المواهب العالية والميزات الخلقية، قد بلغ من تأثرهم بتفوّق المسلمين، أنهم حتى عندما كانوا يتجنبون الاندماج في خدمة السلطان، بأداء ضريبة الأبناء، كانوا يدخلون في دين محمد [صلى الله عليه وسلم] بمحض إرادتهم. ولابدّ أنه كان لتفوّق المجتمع التركي من الناحية الخلقية شأن كبير في هذا التحوّل إلى الإسلام الذي كان كثير الوقوع في القرن الخامس عشر.."[19]

3 – التفوّق الحضاري والحياة المزدهرة:

ومع التفوّق الخلقي، كان هناك تفوق حضاري وحياة مزدهرة من صنع هذا الدين الذي جاء لكي يعمر الدنيا ويغمرها بالبهجة والعطاء، ولكي يزرع الأرض ويملأها خضرة وجمالاً، والذي يطالب فيه رسول الله ﷺ اتباعه بأن يعملوا ويزرعوا حتى آخر لحظة في هذا العالم: «إذا قامت الساعة وفي يد أحدكم فسيلة فاستطاع ألاّ تقوم حتى يغرسها، فليغرسها فله بذلك أجر».

---

[18] الدعوة إلى الإسلام ، ص 196 – 198.

[19] المرجع نفسه، ص 198.

وإذا كانت المسيحية تعتبر الحياة منفى ومعتقلاً للخطيئة والإثم.. إذا كانت تراها نفقاً مظلماً.. فإن الإسلام -بعكس ذلك تماماً- يحتضن الحياة وينميّها، لأنها الفرصة الفذة للتحقق بالإيمان، ولنيل الشروط التي تمضي بالإنسان إلى يوم الحساب وهو مطمئن سعيد.

إن هذا المجتمع المتفوق بفاعليته، ورفاهيته، أثر هو الآخر في مصير الصراع بين المذاهب والأديان، وكسب إلى صف الإسلام أفراداً وجماعات وشعوباً: "لقد بلغ من تأثير الإسلام في نفوس معظم الذين تحولوا إليه من مسيحيي إسبانيا مبلغاً عظيماً، حتى سحرهم بهذه المدنية الباهرة، واستهوى أفئدتهم بشعره وفلسفته وفنه الذي استولى على عقولهم وبهر خيالهم، كما وجدوا في الفروسية العربية الرفيعة مجالاً فسيحاً لإظهار بأسهم، وما تكشّفت عنه هذه الفروسية من قصد كريم وخلق قويم، تلك الحياة التي ظلت مغلقة في وجوه الأسبان الذين بقوا على تمسّكهم بالمسيحية وإخلاصهم لها. أضف إلى ذلك أن علوم المسيحيين وآدابهم لابدّ أن تكون قد بدت فقيرة ضئيلة إذا ما قيست بعلوم المسلمين وآدابهم التي لا يبعد أن تكون دراستها في حدّ ذاتها باعثا على الدخول في دينهم. هذا إلى أن الإسلام في إسبانيا استطاع أن يثير في نفوس الاتقياء الجمال الذي ينشده الورعون والمتحمّسون." [20]

والإسلام حينما يكسب، بتأثير تفوّقه الحضاري، جماعات الناس، فانه لا يمنحهم عقيدة جديدة فحسب، ولكنه، وبدفع من هذه العقيدة الفاعلة نفسها، يمنحهم مكانة حضارية أكثر رقيا، بل قد يقودهم أحياناً أخرى، عبر نقلة مذهلة، من الجاهلية والخرافة إلى التحضّر والعقل.. ينتقل بهم من الظلمات إلى النور. وهذا يبدو أوضح ما يبدو، فيما شهدته مساحات واسعة من إفريقيا. لقد منح الإسلام هناك أولئك الذين اتصلوا به "منـــزلة أرقى، وفكرة اسمى، عن مكانة الإنسان من العالم المحيط به "وحررّهم" من رق ألف من الأوهام الخرافية." [21]

[20] الدعوة إلى الإسلام، ص 164.

[21] المرجع نفسه، ص 395.

ومن أجل التحقق من مصداقية هذا الاستنتاج لابد من متابعة (أرنولد) وهو يسرد علينا حشوداً من مفردات هذه النقلة التي حققها الإسلام للإفريقي " فلا شك أن ما كان يلقاه السود الوثنيون من ترحيب المسلمين بدخولهم في الإسلام، هو الذي كان يرغبهم في الانضمام إلى مجتمع ديني تتطلب حضارته التي تفوق حضارتهم أن يؤثروا التخلي عن كثير من عاداتهم وطباعهم البربرية. ومما يساعد في نفس الوقت مساعدة كبيرة جداً على تفسير نجاح هذا الدين، أن مجرد الدخول في الإسلام يدلّ ضمناً على الترقي في الحضارة، وأنه خطوة جد متميزة في تقدم القبيلة الزنجية، عقلياً ومادياً. وكانت القوى المحشودة جنباً إلى جنب مع العقيدة الإسلامية، تبلغ من القوة والبأس إلى حد أن البربرية والجهل والخرافة الدينية، تلك الأمور التي كان الدين يجدّ في القضاء عليها، لا تجد إلاّ فرصة يسيرة في إطالة المقاومة. وقد اتضح ما تقدمه حضارة إفريقيا الإسلامية إلى الزنجي الذي تحوّل إلى الإسلام، وضوحا يبعث على الإعجاب في العبارات الآتية: (إنّ أقبح الرذائل وهي أكل لحوم البشر، وتقديم الإنسان قرباناً، ووأد الأطفال أحياء، تلك الرذائل التي تجد ما يبرّر الاعتقاد بأنها كانت في وقت ما منتشرة في كل إفريقيا، قد اختفت فجأة وإلى الأبد. والذين كانوا يعيشون حتى ذلك الوقت عراة بدءوا يرتدون الملابس، بل يتأنقون في ملابسهم، وأولئك الذين لم يغتسلوا من قبل قط، بدءوا يغتسلون بل يكثرون من الاغتسال لأن الشريعة المقدسة تأمر بالطهارة."[22]

ويميل النظام القبلي إلى "فسح المجال لأساس أوسع نطاقاً، وبعبارة أخرى، إلى اندماج القبائل بعضها في بعض لتصير أمما، وبازدياد النشاط والمعرفة تصير الأمم امبراطوريات. وتنشأ مدارس أولية، حتى لو أنها اقتصرت على تعليم تلاميذها تلاوة القرآن، لكانت ذات قيمة في نفسها، وقد تكون خطوة في سبيل ما هو أعظم منها بكثير وقد أصبح المسجد الجيد البناء، النظيف، بما فيه من آذان للصلاة خمس مرات في اليوم، وقبلة تتجه إلى مكة، وإمام وصلاة جمعة، مركزا للقرية بدلاً من دار عبادة الأوثان ذات المنظر البشع. وقد طغت عبادة الله الواحد القهار.. العليم الرحيم على كل ما لقن الأهالي عبادته من قبل، طغياناً لا حدّ له. وبلغت اللغة العربية، وهي اللغة

[22] المرجع نفسه، ص 395.

التي تكتب بها دائما الكتب الدينية الإسلامية، حدا يفوق كل وصف من الغنى والجمال. وإذا ما تعلموا هذه اللغة أصبحت لغة التخاطب بين قبائل نصف القارة.. وهي إلى ذلك لغة أدب وشريعة وقانون مكتوب حلت محل نزوات شيخ القبيلة الاستبدادية، وهذا تغير يعتبر في حد ذاته تقدما هائلاً في الحضارة. وظهرت صناعات وتجارة، لا كالتجارة الصامتة التي تقوم الإشارات فيها مقام اللغة في التفاهم، ولا كالمبادلة البدائية في الخامات والتي وجدت في إفريقيا منذ أقدم العصور، ولا كالمقايضة بالودع أو البارود أو الخمر، تلك المقايضة التي لا تزال تستخدم على الساحل وسيلة أساسية في التبادل، ولكنها صناعات تنطوي على مهارة فائقة، وتجارة منظمة تنظيماً محكماً. وظهرت المدن الكبيرة في أرض الزنوج بتأثير هذه الصناعة والتجارة، وتأثير الحكومات الأكثر استقراراً التي جاء بها الإسلام.. أما فيما يتعلق بالفرد، فمن المسلم به من كل الوجوه أن الإسلام يمد السود الذين أسلموا حديثاً بالنشاط والعزة والاعتماد على النفس واحترام الذات، وهذه كلها صفات يندر جداً أن نجدها في مواطنيهم الوثنيين أو المسيحيين."[23]

ويشير (توماس أرنولد) إلى مسألة مهمة في هذا المجال وهي أن طابع الحضارة الإسلامية الغالب "لم ينقطع عن التأثير في العقلية الزنجية، أو عن العمل باعتباره أحد المؤثرات التي تساعد على تحويل عبدة الأوثان الإفريقيين إلى الإسلام"، لم ينقطع حتى بعد استيلاء الأوروبيين على مساحات واسعة من إفريقيا " فلما مسّت هؤلاء الزنوج الثقافة الأوروبية فجأة، مضوا قدما في طريق الحضارة، ولكنهم، وقد عجزوا عن أن يقيموا جسراً على البرزخ الذي يفصلهم عن حكامهم الأجانب، وجدوا في الإسلام ثقافة ملائمة لحاجاتهم، وجديرة بتكييف مطالبهم ومطامحهم. ولذلك كان بعيدا كل البعد عن انتشار السيادة الأوروبية أن تعوق نشاط الدعاة المسلمين."[24]

---

[23] الدعوة إلى الإسلام، ص 396 – 399.

[24] المـــرجع نفسه، ص 399، وعن ارتباط انتشار الإسلام بالتحضر تنظر الصفحات 418، 425، 438 للإطلاع علـــى شواهد في مناطق أخرى من العالم، وتنظر – كذلك – الصفحات التالية للغرض نفسه: 296، 324 – 325، 360 – 362، 373، 375 – 377، 382 – 384.

بل إننا نجد كيف أن هذا التفوق الحضاري يجذب للإسلام حتى أولئك الكفار الذين غزوا دياره، وطووا دوله وممالكه، وهي -بحق- ظاهرة نادرة في تاريخ الصراع بين الحضارات "هنالك -يقول أرنولد- حالتان تاريخيتان كبريان وطئ فيهما الكفار من المتبربرين بأقدامهم أتباع الرسولﷺ أولئك هم الأتراك السلاجقة في القرن الحادي عشر الميلادي، والمغول في القرن الثالث عشر. وفي كلتا هاتين الحالتين نرى الفاتحين يعتنقون ديانة المغلوبين."[25]

4 – التحرير والمساواة:

لقد كان الإسلام في جوهره حركة تحريرية مركبة.. فهو ليس التحرير البسيط الذي يستهدف تخليص الإنسان من هذا القيد أو ذاك، ولكنه التحرير الشامل الذي يسعى إلى إنقاذ الإنسان من سائر الضغوط والعوائق والأغلال التي تقف في طريق التعبير الكامل عن إنسانيته، والتحقق بهذه الإنسانية، سواء كانت هذه الضغوط والعوائق والأغلال متمركزة هناك داخل الإنسان نفسه، أم جاثمة في الخارج بصيغة طبقة أو فئة أو جنس أو لون أو سلطة أو طاغوت.. وستكون المساواة بين الناس، ومنحهم العدل الاجتماعي، وتكافؤ الفرص، جزءً أساسياً في سياق حركة التحرير الشاملة هذه.

ولم تكن الفتوحات الإسلامية في أساسها سوى امتداد جغرافي وإنساني لهذه الحركة التحريرية التي انطوت على العدل والمساواة.. ولقد كان نجاحها الباهر، والتقبل المدهش لمطالبها من الجماعات والشعوب التي توجهت إليها، والإقبال الهائل على الدين الذي حملته هذه الحركة، وبشّرت به، ودعت إليه، تأكيدا للقيم التي جاءت هذه الفتوحات تزرعها في ساحات العالم.

ولم يكن الأمر مجرد نظرية تطرح، أو شعارات يخدع بها الناس دون أن يكون لهذه أو تلك رصيد في ميدان الواقع.. وإنما، على العكس من معظم المذاهب والحركات، قدر حملة هذا الدين، عبر انتشارهم في الأرض، من تحويل هذه القيم إلى وقائع

[25] المرجع نفسه، ص 26، وتنظر ص 250.

وممارسات منظورة، ومعيشة أذهلت الأمم والجماعات والشعوب، وساقتها إلى الانتماء لهذا الدين.

هذا هو واحد من العوامل الفعالة التي تفسّر سرعة انتشار الإسلام وتكشف عن جانب من معجزته الفريدة.

و(توماس أرنولد) عندما يطرح المقولة التالية: "كان المثل الأعلى الذي يهدف إلى إخوة المؤمنين كافة في الإسلام من العوامل القوية التي جذبت الناس بقوة نحو هذه العقيدة."[26] إنما يشير إلى إحدى القيم التي تضمنتها حركة التحرير تلك وهي المساواة والعالمية التي تطلق الإنسان في أرجاء الدنيا أخا للإنسان، حرا من كل ما يعوقه عن الانتماء لهذا العالم.

لكن الأمر لا يقف عند هذا الحدّ، فمن خلال الوقائع التي لا يحصرها حد، ومن خلال الشواهد التاريخية المزدحمة، تلتقي سائر القيم التحريرية التي كانت بمثابة نقاط جذب ساقت ملايين الناس إلى هذا الدين. ويكفي أن نتابع بعض ما دوّنه (أرنولد) في كتابه عن هذه المسألة لكي يتأكد لنا ذلك: "كان الأرقاء الذين وصلوا إلى الحضيض أول من تديّن بالإسلام في إسبانيا، يضاف إليهم عدد كبير من أهالي الطبقات الدنيا والوسطى الذين تدّينوا بالإسلام عن إيمان ثابت، متحوّلين إليه من ديانتهم القديمة التي أهمل رجالها مصالحهم ولم يحفلوا بتلقينهم أصولها، وانصرفوا إلى مطامع الدنيا، فساموهم الخسف ونهبوا أملاكهم. وبعد أن تحول هؤلاء الأسبان إلى الإسلام ظهروا بمظهر الغيارى على دينهم الجديد."[27]

وحتى لا يخطر في بال أحد بأن الإسلام جذب فقط أولئك الذين يحتلون الدرجات السفلى في السلّم الاجتماعي، وبالتالي فهو بمعنى من المعاني حركة طبقية كما يحاول البعض أن يستنتج، فإننا يجب أن نشير إلى ما أورده (أرنولد) في النصّ السابق نفسه مما ينقض هذا الاستنتاج المحدود.. إنه يقول: "لقد اعتنق هذا الدين

[26] الدعوة إلى الإسلام، ص 94.

[27] الدعوة إلى الإسلام، ص 155.

الجديد كثير من أشراف المسيحيين، عن عقيدة راسخة أو عن بواعث أخرى."[28]

مهما يكن من أمر فإننا إذا انتقلنا مع (أرنولد) إلى أماكن أخرى من العالم الذي حرّره الفاتحون، تأكد لنا أكثر فأكثر دور البعد التحريري في انتشار الإسلام.

في بلاد فارس "قدّر للإسلام أن يفتح أمام الناس سبلاً واضحة من الآمال الكبيرة، وأن يعدهم بتخليصهم في أسرع وقت من عبوديتهم وحالتهم السيئة."[29]

وقد رحّب بهذا الدين بصورة خاصة "الصناع وأصحاب الحرف وأهل الطبقة العاملة، واعتنقه عدد عظيم منهم في حماسة كبيرة.. وهم الذين كان ينظر إليهم باحتقار وازدراء"، وقد كان اعتناقهم الإسلام يعني "تركهم في الحال أحرارا ومساواتهم في المذهب الديني."[30]

في الهند كانت سرعة ازدياد المسلمين " زيادة هائلة " -كما يرى أرنولد- ترجع إلى "أحوال الحياة الاجتماعية عند الهندوكيين، فان الإهانات والاحتقار الذي انصبّ على الطبقات المنحطة من الهندوكيين على أيدي إخوانهم في الدين، والعراقيل التي لا يمكن التغلب عليها، والتي وضعت في سبيل أي فريق من هذه الطبقات يرغب في تحسين حالته، ليوضح لنا في هذه المفارقة العجيبة فوائد النظام الديني الذي لا يفرّق بين منبوذ وغير منبوذ والذي يهيئ مجالاً حراً للتمتع بأي مطمح. ففي البنغال مثلا يعتنق الإسلام هؤلاء الذين يقومون بنسج القطن، والذين ينظر إليهم إخوانهم في الدين من الهندوكيين، كما ينظر المرء إلى السفلة والطغام، في جماعات كبيرة ليتخلصوا من المركز الوضيع الذي انحدروا إليه.. ولما وجد السواد الأعظم من الناس، الطبقات العالية تدخل في حوزة الهندوكية وألفى جمهور الشعب نفسه محتقراً كالمنبوذين، دخلوا في الدين الإسلامي. وكذلك نجد بعض الأمثلة البارزة لتحوّل الناس إلى الإسلام بين الطبقات الدنيا من الهندوكيين في المراكز الزراعية، حيث لا تزال الجماعات الصغيرة من حرّاث

---

[28] المرجع والصفحة نفسها.

[29] المرجع نفسه، ص 237.

[30] المرجع والصفحة نفسها.

المسلمين يكونون مراكز مبعثرة للثورة على الظلم الشائن الذين أسلم دينهم الهندوكي السابق إليه هذه الطبقات الدنيا بصورة تبعث على اليأس والقنوط."[31]

في إفريقيا "أصبح الزنوج اليوم ينظرون إلى الإسلام على أنه دين السود والمسيحية على أنها دين البيض، ويرون أن المسيحية تدعو الزنجي إلى الخلاص ولكنها تضعه في مكان منحط إلى حدّ أنه يقول في نفسه وقد استولى عليه القنوط: ليس لي نصيب ولاحظ في هذا الدين. أما الإسلام فانه يدعو الإنسان إلى الخلاص ويقول له: إن بلوغك أسمى الدرجات الممكنة إنما يتوقف عليك. ومن ثم أقبل الزنجي بدافع من الحماس على هذا الدين بروحه وجسده."[32]

يواصل (أرنولد) تحليله لموقف المسلم الأفريقي والمستمد من كتابات عدد كبير من المتخصصين الغربيين، فيرى أن هيئته العامة تنم عن شعور بالقومية واعتزاز بالجنس: "يخيل إليك أنه يقول: إن كّلاً منا يختلف عن الآخر، ولكننا جميعا بشر. وان انتشار الإسلام الذي نشهده اليوم في نيجيريا الجنوبية ليؤثر بصفة خاصة تأثيراً اجتماعياً، ويمنح الإسلام هؤلاء الذين يتصلون به منزلة أرقى وفكرة أسمى عن مكانة الإنسان من العالم المحيط به."[33]

5 – المأزق العقدي والتاريخي للأديان الأخرى:

يقف (أرنولد) عند هذا العامل وقفة طويلة في أكثر من مكان من مؤلفه، ويوثقه بالمزيد من الشواهد والتفاصيل، ويراه –وهو محق في رؤيته– واحداً من العوامل الأساسية الفعالة في انتشار الإسلام.. لقد وضعت المذاهب الوضعية والأديان المحرفة نفسها، بسبب من هذا التحريف المتراكم عبر العصور، في طريق مسدود.. وكانت لحظة انطلاق الفاتحين لتحرير العالم تعاني من ورم غير اعتيادي باستضافتها يوما يعد

[31] المرجع نفسه، ص 323 – 324، 326، وينظر المرجع نفسه، ص 301 – 302، 313 – 314، 324 – 325، 327 للإطلاع على المزيد من الشواهد.

[32] الدعوة إلى الإسلام، 394 – 395، الهامش رقم 2.

[33] المرجع نفسه، ص 395.

آخر، سيلا من الأجسام والمعطيات الغريبة التي بعدت بها عن مسارها الصحيح، ووضعتها في حالة عداء مع الإنسان كمخلوق حرّ، كريم، أريد له أن يتحقق بالحياة الكاملة التي منحها الله إياه..

كانت هذه الأديان – أيضاً – تعاني من مأزق تاريخي، فلم يكن بمقدورها، وهي تئن عقديا، أن تفعل شيئا، أن تعد الجماعات والشعوب بالخلاص، أو أن تهبهم الأمل. ولم يكن بمقدورها – بالتالي – أن تقف قبالة الإسلام، هذا القادم الجديد الذي جاء لكي يحرّر الإنسان مما فعلته به الأديان والطواغيت والأهواء.. لم يكن بمقدورها أن تمنع حشود الأتباع وهم ينفضون عن عقولهم وقلوبهم الخرافات والأضاليل والأوهام ويستجيبون للنداء الجديد.. بل إن هؤلاء الأتباع كانوا كأنهم، وهذا النداء، على ميعاد.. لقد انتظروا طويلا، وها هي لحظة التحرّر والانفلات قد آذنت بدخول طلائع الفاتحين تخوم العالم المرهق العتيق.

وإذا كان الإسلام قد حرّر الإنسان على المستوى الاجتماعي والبشري، فيما تم الوقوف عنده في الصفحات السابقة، فانه ها هنا يحرره على المستوى العقلي والوجداني، وإذْ كانت الأديان المحرّفة تجرّه، في محاولة أخيرة يائسة، نحو المزيد من الحفر الضيقة، وتضيّق عليه الخناق بمزيد من الأغلال.. كان الإسراع بالانتماء للدين الجديد هو الحتمية التي تفرض عليه تلبية النداء.

لنقم، وحسب ما يسمح به المجال، بجولة سريعة في أرجاء العالم القديم، يومها، لكي نضع أيدينا مع (توماس أرنولد) على مواطن العفن والفساد، ولكي نرى بوضوح هذا العامل الفعال الذي يفسر لنا، أسوة بالعوامل الأخرى، معجزة انتشار الإسلام.

إن كثيراً من علماء اللاهوت المسيحيين يعتقدون –كما يرى أرنولد– أن "حالة الكنيسة الشرقية التي تدهورت في ذلك الوقت –من الناحيتين الخلقية والروحية– لابدّ أن تكون قد دفعت كثيرين إلى أن يلتمسوا جوا روحيا أسلم وأصح في ذلك الدين الإسلامي الذي جاءهم وهو في أشد ما تكون الحماسة الغضة قوة وعنفا. وعلى سبيل المثال، يتساءل ملمان، في كتابه عن تاريخ الكنيسة اللاتينية (ص 216 – 217) (ماذا

كانت حال العالم المسيحي في الأقاليم التي تعرضت لأولى غزوات الإسلام ؟ كانت الأحزاب الدينية يناوئ بعضها بعضا، ورجال الكنيسة يتنازعون فيما بينهم على أشد مسائل الدين إبهاما وأكثرها غموضا، فيما يتعلق بما وراء الطبيعة في العقيدة الدينية. والأرثوذكس والنساطرة واليعاقبة يضطهد بعضهم بعضا، وقد استحكمت بينهم العداوة التي لا تفتر ولا تنقطع... وشبيه بهذا ما يراه المستشرق الإيطالي (كيتاني) في (حوليات الإسلام ص 1045 – 1046) من أن انتشار الإسلام بين نصارى الكنائس الشرقية إنما كان نتيجة شعور باستياء من السفسطة المذهبية التي جلبتها الروح الهلينية إلى اللاهوت المسيحي. أما الشرق الذي عرف بحبه للأفكار الواضحة البسيطة، فقد كانت الثقافة الهلينية وبالاً عليه من الوجهة الدينية، لأنها أحالت تعاليم المسيح (عليه السلام) البسيطة السامية إلى عقيدة محفوفة بمذاهب عويصة، مليئة بالشكوك والشبهات، فأدّى ذلك إلى خلق شعور من اليأس، بل زعزع أصول العقيدة الدينية ذاتها. فلما أطلّت آخر الأمر أنباء الوحي الجديد فجأة من الصحراء، لم تعد تلك المسيحية الشرقية التي اختلطت بالغش والزيف وتمزقت بفعل الانقسامات الداخلية، وتزعزعت قواعدها الأساسية، واستولى على رجالها اليأس والقنوط من مثل هذه الريب، لم تعد قادرة على مقاومة إغراء هذا الدين الجديد الذي بدّد بضربة من ضرباته كل الشكوك التافهة، وقدم مزايا مادية جليلة إلى جانب مبادئه الواضحة البسيطة التي لا تقبل الجدل. وحينذاك ترك الشرق (المسيحية) وارتمى في أحضان بني بلاد العرب."[34]

وفي مصر كان "الأساس اللاهوتي لبقاء اليعقوبيين طائفة منفصلة، والشعائر التي جاهدوا في سبيل الاحتفاظ بها وقتا طويلا، ودفعوا ثمنها غاليا في هذه السبيل، قد اجتمعت في عقائد كانت صيغتها أشد ما تكون غموضا وإبهاما من الناحية الميتافيزيقية. ولاشك أن كثيراً من هؤلاء قد تحوّلوا، وقد أخذت الحيرة منهم كل مأخذ، واستولى على نفوسهم الضجر والإعياء، من ذلك الجدل السقيم الذي احتدم حولهم، إلى عقيدة تتلخص في وحدانية الله البسيطة الواضحة، ورسالة نبيه محمد ﷺ.

[34] الدعوة إلى الإسلام، ص 89 – 90.

بل إننا نجد في داخل الكنيسة القبطية نفسها في عصر متأخر شواهد تنبئ عن حركة، إن لم تكن إسلامية خالصة، فقد كانت على الأقل وثيقة الصلة بها، وربما ساعد عدم وجود أي نظام كنسي مستقل، يجد طريقة لإيضاحه والتعبير عنه، على زيادة عدد الذين دخلوا في الإسلام."[35]

في أوروبا الشرقية تدهورت الكنيسة الإغريقية تدهوراً خطيراً "ونشأ استبداد في الأمور الدينية جعل الحياة العقلية ترزح تحت عبء القرار الحاسم الذي حرم كل مناقشة في شئون الأخلاق والدين. والشيء الذي أقضّ مضاجعهم هو المجادلات العنيفة التي قامت حرباً عواناً على الكنيسة اللاتينية، مقرونة بكل ما في المناقشات النظرية والكراهة العنصرية من شدة ومرارة. وتدهورت ديانة الشعب فأصبحت تراعي المظاهر الخارجية مراعاة تقوم على الكثير من الوهم والريبة. ووجدت حماسة عبادتهم البالغة متنفساً في عبادة العذراء والقدّيسين والصور والمخلفات الأثرية. وانصرف عدد كبير عن كنيسة انحطت حياتها الروحية إلى الحضيض. ولما ملّوا مناقشات لا نهاية لها حول مسائل مذهبية عويصة، كالانبثاق المزدوج لروح القدس، وأخرى تافهة كاستخدام الخبز الخمير أو الفطير في القربان المقدس، تقبلوا بصدر رحب تعاليم الإسلام الواضحة المفهومة، التي تقوم على الوحدانية. وقد انتهت إلينا أخبار عن طوائف كبيرة من الناس أسلموا، ولم يكونوا بسطاء عامتهم فحسب، بل كانوا من العلماء على اختلاف طبقاتهم ومناصبهم وحالاتهم."[36]

في بلاد الدولة الساسانية شرقاً تراكمت -كما يقول أرنولد- المصائب والآلام المعنوية التي أثارها قيام الصراع العنيف بين العقائد المتنافرة، فمال الناس "إلى هذا النظام العجيب من التنسيق العقلي الذي ينمو فيه الدين الجديد في سهولة ويسر، ويكتسح أمامه أكثر الأديان الأخرى، ويحاول أن يقيم الحالة الدينية والاجتماعية على أساس جديد. وبعبارة أخرى كان أهالي فارس، والأجناس السامية بوجه خاص، قد

[35] المرجع نفسه، ص 126. والتوجّه نفسه حدث في قبرص (المرجع نفسه، ص130، الهامش رقم 1).

[36] الدعوة إلى الإسلام، ص 185 - 186، وينظر: المرجع نفسه، الصفحات 187 - 193 للإطلاع على المزيد من الشواهد والتفاصيل.

بلغت عقليتهم درجة ساعدتهم على التحول إلى ذلك الدين الجديد والترحيب باعتناقه بحماسة ملحوظة لما يمتاز به من البساطة."[37]

وفي الهند جذب " طابع تعاليم الإسلام الواقعية عقولاً لم تقنع بنظام الفكرة الحلولية التي تتميز بالغموض. ولما اصطدم الإسلام، مع ما عرف عنه من تمثيل قوي لحقيقة وجود الله، وتلك الحقيقة التي انبعثت منها وهي طابع الحق الذي يتميز بالثبات المطلق.. اصطدم بعقيدة الحلول التي تقوم على الغموض.. وقد تبع ذلك بالضرورة أن الإسلام لم ينتصر في هذه المعركة فحسب، بل غدا البلسم الشافي الذي سرى في شريان الحياة والفكر في بلاد الهند العليا، وسرعان ما أحيا عقولا كثيرة وبث فيها حياة أكثر قوة ونشاطاً."[38]

6- حرية الاختيار ورفض القسر:

إزاء هذا التحرير النفسي، والاجتماعي، والعقلي، والإنساني الذي مارسه الإسلام، والذي يمثل، بجوانبه المتعددة، واحداً من العوامل الأساسية في نجاح حركة الفتح وانتشار الإسلام.. وكامتداد طبيعي لهذا التوجه التحريري الشامل، يؤشر أرنولد على حقيقة عقدية وتاريخية لا تقل خطورة: تلك هي أن الإسلام لم ينتشر بالقسر والإكراه، وأن حرية الاختيار التي منحها الفاتحون أبناء الأمم المغلوبة كانت الحكم الأول والأخير في الانتماء لهذا الدين، أو التشبث بالأديان والمذاهب الأخرى.

لا نريد أن نطيل في موضوع طالما قيل فيه الكثير، ولنؤشر، بدلاً من ذلك، على بعض معطيات أرنولد بهذا الصدد، وهي غنية مزدحمة، ولذا سنكتفي بشواهد محدودة منها فحسب، تغطي أماكن عديدة وفترات شتى:

"يمكننا أن نحكم من الصلات الودية التي قامت بين المسيحيين والمسلمين من العرب، بأن القوة لم تكن عاملاً حاسماً في تحويل الناس إلى الإسلام."[39]

---

[37] المرجع نفسه، ص 236 - 237.

[38] الدعوة إلى الإسلام، ص 290.

[39] المرجع نفسه، ص 65.

"نستطيع أن نستخلص بحق أن القبائل المسيحية التي اعتنقت الإسلام (في غربي آسيا) إنما فعلت ذلك عن اختيار وإرادة حرة. وأن العرب المسيحيين الذين يعيشون في وقتنا هذا بين جماعات مسلمة لشاهد على هذا التسامح."[40]

"إذا نظرنا إلى التسامح الذي امتد إلى رعايا المسلمين من المسيحيين في صدر الحكم الإسلامي، ظهر أن الفكرة التي شاعت بأن السيف كان العامل في تحويل الناس إلى الإسلام بعيدة عن التصديق."[41]

"..لم نسمع عن أية محاولة مدبرة لإرغام الطوائف من غير المسلمين على قبول الإسلام، أو عن أي اضطهاد منظم قصد منه استئصال الدين المسيحي، ولو اختار الخلفاء تنفيذ إحدى الخطتين لاكتسحوا المسيحية بتلك السهولة التي أقصى بها فرديناند وإيزابيلا دين الإسلام من إسبانيا، أو التي جعل بها لويس الرابع عشر المذهب البروتستانتي مذهبا يعاقب عليه مبشره في فرنسا، أو بتلك السهولة التي ظل بها اليهود مبعدين عن إنكلترا مدة خمسين وثلاثمائة سنة. وكانت الكنائس الشرقية في آسيا قد انعزلت انعزالاً تاما عن سائر العالم المسيحي الذي لم يوجد في جميع أنحائه أحد يقف إلى جانبهم باعتبارهم طوائف خارجة عن الدين. ولهذا فان مجرد بقاء هذه الكنائس حتى الآن، ليحمل في طياته الدليل القوي على ما قامت عليه سياسة الحكومات الإسلامية بوجه عام من تسامح نحوهم."[42]

"مما يدل على أن تحول المسيحيين إلى الإسلام لم يكن راجعاً إلى الاضطهاد، ما وقفنا عليه من الشواهد التاريخية الأصلية، وهو أنه في الوقت الذي شغر فيه كرسي البطرقية (بمصر) تمتع المسيحيون بالحرية التامة في إقامة شعائرهم، وسمح لهم بإعادة بناء كنائسهم، بل ببناء كنائس جديدة.. وحوكموا في محاكمهم الخاصة، على حين أعفي الرهبان من دفع الجزية، ومنحوا امتيازات معينة."[43]

---

[40] المرجع نفسه، ص 70.

[41] المرجع نفسه، ص 88.

[42] الدعوة إلى الإسلام، ص 98 - 99.

[43] المرجع نفسه، ص 130.

"لم تكن القوة أو العنف السبب في اتساع نطاق تحويل الناس (في إيران) إلى الإسلام.. وانه لمن المستحيل قطعاً أن نقول أن اضمحلال ديانة زرادشت كان سببه أن الفاتحين المسلمين استعانوا بالقوة على حمل الناس على اعتناق الإسلام."[44]

"إننا نجد من بين (الملايين) من مسلمي الهنود، عدداً هائلاً لم يكن للقوة والعنف نصيب في تحويلهم، أو في تحويل ذرّيتهم إلى الإسلام، بل كان للتعليم والإقناع وحدهما، اللذين لجأ إليهما الدعاة المسلمون، تأثيره الفعال في هذه السبيل."[45]

"من المهم أن نلاحظ أن الانتصارات الحربية وفتح البلاد لم تكن أهم ما ساعد على تقدم الإسلام (في إفريقيا).. والواقع أنه لو لم يتبع هذه الحروب نشاط متميز في نشر الدعوة، لدلّت على أنها لم تكن ذات أثر فعال في تكوين مجتمع إسلامي خالص."[46]

"لدينا الدليل القاطع الذي شهد به الرحالون وغيرهم على نشر الدعوة بالطرق السلمية وقيام الداعي المسلم بأعمال تنطوي على الرفق والأناة، تلك الأعمال التي عملت في سبيل انتشار الإسلام في إفريقيا الحديثة أكثر مما عمل أي أسلوب آخر.."[47]

7- النجاح المذهل:

إن السرعة المذهلة في انتشار الإسلام، والنجاح الباهر لحركة الفتح الإسلامي، لهي ظاهرة تحمل بحدّ ذاتها مصداقية هذا الدين، وتؤكد وعده الإلهي بالانتصار. ولقد جاء هذا بمثابة "إعلام" مؤثر للجماعات والشعوب غير المسلمة، في أن مقاومة هذا الدين عمل غير مجد، بعد إذ زعزع ثقتها بعقائدها وقياداتها، كما أنه رفض غير منطقي ولا مبرّر لإرادة الله ولطبائع الأشياء ومعطيات التاريخ.. ومن ثم كان الإقبال المتزايد على الانتماء لهذا الدين مدفوعاً، أحياناً، بالانبهار والتسليم إزاء معجزة الانتشار

---

[44] المرجع نفسه، ص 238، 239.

[45] المرجع نفسه، ص 285.

[46] المرجع نفسه، ص 369 - 370.

[47] المرجع نفسه، ص 391.

السريع المدعم بالانتصارات المذهلة على كل الجبهات: "إن ما أحرزته سيوف المسلمين من نجاح واسع النطاق، منقطع النظير، قد زعزع عقيدة الشعوب المسيحية التي أصبحت تحت حكمهم، ورأت أن هذه الفتوح قد تمت بعون من الله، وأن المسلمين قد جمعوا بين النعيم في الدنيا وبين التوفيق الإلهي، وأن الله سبحانه لم يجعل النصر إلاّ على أيدي عباده المختارين. وهكذا ظهر نجاح المسلمين دليلاً على صدق دينهم."[48]

ويشير أرنولد إلى أن أهم ما يجب أن نلاحظه في هذا المجال هو أن بعض الناس بدأ يسال: "هل من الجائز أن يأذن الله للمسلمين بأن يبلغوا ما بلغوه من هذا العدد الذي لا يدخل تحت حصر بدون سبب معقول؟ هل من المتصوّر أن مثل هذه الآلاف المؤلفة (من خصوم الإسلام) تتعرض للهلاك الأبدي، كما يتعرض الرجل الواحد؟ كيف يمكن أن يكون أمثال هذه الجماهير الزاخرة مناوئين للدين الحق؟ إنه إذا كان الحق أقوى من الباطل وكان الناس جميعا يحبون الحق ويرغبون فيه أكثر مما يحبون الباطل، فليس من المحتمل أن تجمع أقوام كثيرة كهؤلاء على محاربته؟ كيف استطاعوا أن يقووا على الحق ما دام الله يعين على الحق ويؤيده؟ كيف استطاع دينهم أن ينتشر بهذه الصورة العجيبة لو أنه قام على أساس فاسد من الباطل؟ إن أمثال هذه الأفكار كما تخبرنا الروايات، قد أغرت الشعوب المسيحية التي عاشت في ظل الحكم التركي اغراءً قوياً بالانتماء للإسلام."[49]

وماذا بعد؟ هل ثمة سبب آخر؟

نعم وبكل تأكيد.. إنه السبب الموجود في كل الأسباب، المتزامن مع كل الدوافع، المركوز في كل اللحظات التي اختار فيها هذا الإنسان أو ذاك، هذه الجماعة أو تلك أن تنتمي لهذا الدين.

إنه الدين الإسلامي نفسه: قوة التعاليم، تماسكها، وضوحها، صدقها العجيب، استجابتها الواعدة لمطالب الإنسان والجماعات.

---

[48] الدعوة إلى الإسلام، ص 94.

[49] المرجع نفسه، ص 199.

ذلك هو – إذن – سبب الأسباب..

ولقد كان من المفروض أن نبدأ به البحث عن دوافع الانتشار، وسرّ النجاح الذي أذهل الباحثين.. إلاّ أن مثلا يقول (شدة الظهور تؤدي إلى الخفاء) قد يدفع المرء أحياناً إلى البدء بما هو أكثر بُعدا وخفاءَ..

والحق أننا رأيناه ولمسناه متعاشقاً مع كل الأسباب التي حدثنا عنها (توماس أرنولد).. وهو في منظور المسلم وقناعاته بداهة من البداهات التي لا تحتاج إلى جدل أو توثيق.. إن انتشار الإسلام يكمن في الإسلام نفسه.. ولكننا ما دمنا بصدد الحديث عن المنظور الغربي للظاهرة، من خلال باحث (كأرنولد) فإنّه يتحتم علينا أن نعرف ما قاله في هذا المجال، وهو غني مزدحم، كما عوّدنا الرجل، بل هو منبث في ثنايا الكتاب كله.. وقد آن الأوان لكي نترك للقارئ أن يرجع إلى الكتاب !!.

ثانياً: العقيدة والشريعة والعبادة

1 – العقيدة:

يعرّف (توماس أرنولد) العقيدة الإسلامية بأنها تقوم على شطرين (لا إله إلاّ الله، محمد رسول الله)، فأما شطرها الأول ومرتكزها الأساس فهو: "الذي يعبر عن مبدأ يكاد يقبله جميع الناس على أنه فرض لابد منه"، على حين يقوم الشطر الثاني منها" على فكرة علاقة الناس بالله، وهي مسألة تكاد تكون عامة شاملة كذلك، بمعنى أن الله تعالى في فترات من تاريخ العالم، قد وهب بعض تجلّيه على الخلق على لسان أنبياء ملهمين."[50] وأرنولد –بذلك– يركز، وبكلمات قلائل، جوهر الدين الإسلامي، بل مطلق الدين الذي هو تأكيد لوجود الله سبحانه ووحدانيته المطلقة، وحضور فاعل للعلاقة بينه وبين خلقه عن طريق وسيط النبوّة.

فإذا كانت الأديان السماوية التي سبقت الإسلام قد انحرفت عن مرتكزاتها الأساسية، فخرجت –بذلك– عن مسارها الأصيل، فإنّ الإسلام، بقدر ما هو تأكيد لهذا المسار، بقدر ما كان يمتلك، ولا يزال، القدرة على الالتزام به والحفاظ على

[50] الدعوة إلى الإسلام، ص 454.

وضوحه واستمراريته. وإذا كان الدين من خلال التعريف الذي قدّمه أرنولد يمثل حالة منطقية تماماً، منسجمة بالكلية مع معطيات العقل، فإنّ الإسلام، بالتالي، ومن خلال مواصفاته تلك، يحمل بالتأكيد طابعاً عقلياً. وأرنولد يستعير عبارات للبروفيسور مونتيه بهذا الصدد يجدها تعبر عن هذه الحقيقة وتوضحها: "بشكل يبعث على الإعجاب"، فهو يقول بأن "الإسلام في جوهره دين عقلي بأوسع معاني هذه الكلمة من الوجهتين الاشتقاقية والتاريخية. فإنّ تعريف الأسلوب العقلي بأنه طريقة تقيم العقائد الدينية على أسس من المبادئ المستمدة من العقل والمنطق، ينطبق عليه تمام الانطباق.. إن للإسلام كل العلامات التي تدل على أنه مجموعة من العقائد التي قامت على أساس المنطق والعقل. وتتلخص العقيدة الإسلامية من وجهة نظر المؤمنين في الاعتقاد بوحدانية الله ورسالة نبيه ﷺ، أما من وجهة نظرنا نحن الذين نحلل عقائده تحليلاً لا روح فيه، فنعتقد في الله وفي الحياة الآخرة وهذا المبدآن هما أقل ما ينبغي للاعتقاد الديني، وهما أمران يستقران في نفس الرجل المتدين على أساس ثابت من العقل والمنطق، ويلخصان كل تعاليم العقيدة التي جاء بها القرآن، وان بساطة هذه التعاليم ووضوحها، لهي على وجه التحقيق من أظهر القوى الفعالة في الدين وفي نشاط الدعوة إلى الإسلام.. وعلى الرغم من التطور الخصب، بكل ما في الكلمة من معنى، لتعاليم النبي ﷺ حفظ القرآن مترلته من غير أن يطرأ عليه تغيير أو تبديل، باعتباره النقطة الأساسية التي بدأت منها تعاليم هذه العقيدة، وقد جهر القرآن دائماً بمبدأ الوحدانية في عظمة وجلال وصفاء لا يعتريه التحوّل. ومن العسير أن نجد في غير الإسلام ما يفوق تلك المزايا. وان هذا الإخلاص لمبدأ الدين الأساسي، والبساطة الجوهرية في الصورة التي يصاغ فيها هذا الدين، والدليل الذي كسبه هذا الدين من اقتناع الدعاة الذين يقومون بنشره اقتناعاً يلتهب حماسة وغيرة، إن هذا كله يكون الأسباب الكثيرة التي تفسر لنا نجاح جهود دعاة المسلمين. وكان من المتوقع لعقيدة محددة كل التحديد، خالية كل الخلوّ من جميع التعقيدات الفلسفية، ثم هي تبعا لذلك في متناول إدراك الشخص العادي، أن تمتلك، وإنها لتمتلك فعلاً، قوة عجيبة لاكتساب طريقها إلى ضمائر الناس."[51]

أما الأسقف (لفروي) الذي يقتبس منه (أرنولد) عبارات أخرى في تقييم العقيدة

[51] الدعوة إلى الإسلام، ص 454 - 456.

الإسلامية، فإنّه يرى أن "سرّ القوة الخارقة للعادة التي أظهرها الإسلام في أزهر عصوره، في فتوحاته وتقدّمه، كامن في إدراك هذا الدين وجود الله، أكثر منه في وحدانيته." فالوحدانية صفة من صفات الذات الإلهية وان كانت هي الصفة الأكبر والأخطر، ولكن هناك قبلها وجود الله سبحانه، وكنه هذا الوجود كما تصوّره وتوضحه العقيدة الإسلامية، بمواجهة سيل من العقائد والمذاهب والفلسفات والتصوّرات، شط بها النوى، ومال بها الهوى، وطغت عليها الأوهام والأضاليل، فتحدثت عن وجود إلهي هو في أغلب الأحيان ليس الوجود الحقيقي الإيجابي الفعال، بل ربما على النقيض من ذلك. ومن ثم كان جل ما انبثق عن هذه المعطيات الخاطئة المضللة عن وجود الله، في مفردات السلوك اليومي والممارسات الحياتية بشتى أبعادها، خاطئا، سلبياً، ومضللاً..

عند هذا المرتكز في عقيدة الإسلام يقف (الأسقف لفروي) لكي يؤكد أن تصور الإسلام للوجود الإلهي، بتماسكه ووضوحه وجدّيته وإيجابيته، يسبق في أهميته ومردوداته على الحياة الإسلامية، مبدأ الوحدانية، ولعله محق في هذا إذا عرفنا، مرة أخرى، أن الوحدانية نفسها إنما هي امتداد لهذا التصوّر الإسلامي المتكامل عن وجود الله.. " فليس قولنا أن الله واحد بأعظم من قولنا أنه موجود، بمعنى أن وجوده هو حقيقة الكون المطلقة، وأن إرادته هي العليا، وأن سيادته مطلقة، وأن قوته لا تحد..

وفي مقارنة فاحصة بين اللاهوت النصراني وعقيدة الإسلام يؤكد (أرنولد) الخصائص المتميزة لهذه العقيدة، كما أشار إليها (مونتيه) و(لفروي) وغيرهما، ويذكر بخصائص أخرى، وهي بمجموعها تتجاوز بعقيدة الإسلام كافة السلبيات التي عانى منها ولا يزال اللاهوت النصراني وغير النصراني، وتضع الإنسان المؤمن في دائرة المسؤولية، والإيجابية، والالتزام الأخلاقي، والفاعلية، والأخوة الإنسانية، والرجاء الكوني، وبانسجام وتوافق مدهشين مع الطبيعة البشرية: "كان أئمة اللاهوت في إفريقيا والشام قد استبدلوا –كما يقول أرنولد– بديانة المسيح (عليه السلام) عقائد ميتافيزيقية عويصة. لقد كان ثورة على المجادلة الجوفاء في العقيدة وحجة قوية ضد تمجيد الرهبانية باعتبارها رأس التقوى. ولقد بيّن أصول الدين التي تقول بوحدانية الله وعظمته، كما بين أن الله رحيم عادل يدعو الناس إلى الامتثال لأمره والإيمان به

وتفويض الأمر إليه. وأعلن أن المرء مسئول، وأن هناك حياة آخرة ويوما للحساب، وأعد للأشرار عقابا أليما، وفرض الصلاة والزكاة والصوم وفعل الخير، ونبذ الفضائل الكاذبة والدجل الديني والترّهات والترعات الأخلاقية الضالة، وسفسطة المتنازعين في الدين، وأحل الشجاعة محل الرهبنة، ومنح العبد رجاء، والإنسانية رخاء، ووهب الناس إدراكاً للحقائق الأساسية التي تقوم عليها الطبيعة البشرية."[52]

2 – الشريعة:

هذه بعض التأشيرات على عقيدة الإسلام، فماذا عن شريعته؟

يؤكد (توماس أرنولد) أكثر ما يؤكد قدرة الإسلام على تنظيم الحياة. على مجابهة الفوضى والهوى والفساد والتفكك والتشرذم والتقاتل والتفتت والاصطراع والضرب على غير هدى، وتقديم البديل إزاء هذا كله: الوحدة، والانسجام، والتوافق، ولّم الطاقات، والنظافة، والحركة في ضوء معالم واضحة ثابتة، وبرنامج عمل محدّد مرسوم.

ومنذ اللحظات الأولى للتشكل التشريعي للإسلام يلحظ (أرنولد)، مستمداً ملاحظته من (حوليات) المستشرق الإيطالي (كيتاني) المعروفة، والمنشورة في إيطاليا عام 1905 م، كيف "أن من أسباب الترحيب الحار الذي لقيه محمد ﷺ في المدينة، أن الدخول في الإسلام، قد بدا للطبقة المستنيرة من أهالي المدينة علاجاً لهذه الفوضى التي كان المجتمع يقاسيها، وذلك لما وجدوه في الإسلام من تنظيم محكم للحياة، وإخضاع أهواء الناس الجامحة لقوانين منظمة قد شرعتها سلطة تسمو على الأهواء الفردية."[53]

حتى إذا بلغنا الفترة التي سبقت وفاة الرسول ﷺ صرنا نجد "جميع أنحاء الجزيرة العربية تقريباً تدين له بالطاعة.. ومن تلك القبائل المتنوعة، صغيرها وكبيرها، ذات العناصر المختلفة التي قد تبلغ المائة، والتي لم تنقطع عن التنازع والتناحر، أنشأت رسالة محمد ﷺ أمة واحدة. وجمعت فكرة الدين المشترك تحت زعامة واحدة، شتى القبائل في نظام سياسي واحد، ذلك النظام الذي سرت مزاياه في سرعة تبعث على الدهش والإعجاب.. وهكذا كان النظام القبلي لأول مرة، وإن لم يقض عليه نهائياً (إذ كان

[52] الدعوة إلى الإسلام، ص 90.

[53] المرجع نفسه، ص 43.

ذلك مستحيلاً) شيئاً ثانوياً بالنسبة للشعور بالوحدة الدينية. وتكللت المهمة الضخمة بالنجاح، فعندما انتقل محمد ﷺ إلى جوار ربه كانت السكينة ترفرف على أكبر مساحة من شبه الجزيرة بصورة لم تكن القبائل العربية تعرفها من قبل، مع شدة تعلقها بالتدمير وأخذ الثأر. وكان الدين الإسلامي هو الذي مهد السبيل لهذا الائتلاف."[54]

إن هذه القدرة المدهشة على تنظيم الحياة، ومجابهة عوامل التفكك والفوضى، لم تقف عند حدود (الحياة العربية)، ولم تتأقلم في إطار جغرافي، وانما مضت، وعلى هدى برنامج عمل مرسوم منذ اللحظة الأولى، تتدرج فيه الأولويات التي تتعامل بواقعية مع معطيات الزمن والمكان، أي مع التاريخ، مضت لكي تعيد تنظيم العالم كله، الحياة البشرية على امتدادها في الزمن والمكان، فتوحد كافة الجماعات والشعوب والأمم وتصنع منها أمة واحدة، يملك أفرادها الحرية التامة في اختيار العقيدة التي يشاءون، ولكنهم لا يملكون بحال الوقوف بمواجهة إرادة التنظيم التي جاء بها هذا الدين من أجل جعل الحياة والإنسان أكثر قدرة على فهم هذه العقيدة وأكثر تحرراً من العوائق والضغوط، في الانضواء تحت لوائها.

إن توحيد قبائل العرب المصطرعة، وتنظيم حياتهم الفوضوية لم تكن سوى خطوة على الطريق، بينما كان الهدف منذ اللحظات الأولى هو العالم! وهكذا يقرر (أرنولد) بوضوح وحسم يكنس أمامه سائر الأوهام والأضاليل التي حاولت أن تصور الإسلام كما لو كان محاولة محدودة في دائرة الحياة العربية "فلم تكن رسالة الإسلام مقصورة على بلاد العرب، بل أن للعالم أجمع نصيباً فيها. ولما لم يكن هناك غير إله واحد، كذلك لا يكون هناك غير دين واحد يدعى إليه الناس كافة. ولكي تكون هذه الدعوة عامة، وتحدث أثرها المنشود في جميع الناس وفي جميع الشعوب، نراها تتخذ صورة عملية في الكتب التي بعث بها محمد ﷺ في السنة السادسة من الهجرة (688م) إلى عظماء ملوك ذلك العصر.. على أنه، إن كانت هذه الكتب قد بدت في نظر من أرسلت إليهم ضرباً من الخرق، فقد برهنت الأيام على أنها لم تكن صادرة عن حماسة جوفاء. وتدل هذه الكتب دلالة أكثر وضوحاً وأشد صراحة على ما تردّد ذكره في

[54] المرجع نفسه، ص 52 – 53، عن:
V. Kremer: Geschichte der herrschenden ideen des islam, Leipzig, 1869, P. 309-310.

القرآن من مطالبة الناس جميعاً بقبول الإسلام.. ولقد صرح الرسول ﷺ بكل وضوح وجلاء أن الإسلام ليس مقصوراً على الجنس العربي قبل أن يدور بخلد العرب أي شيء يتعلق بحياة الفتح بزمن طويل.. ويؤيد دعوى عموم الرسالة والحق في المطالبة بأن يستجيب لها جميع الناس، أن الإسلام كان الدين السماوي الذي اختاره الله للجنس البشري كافة ثم أوحى به إليهم من جديد على لسان محمد ﷺ خاتم النبيين، كما أوحى به من قبل على لسان غيره من الرسل."[55]

وهكذا "حمل الإسلام منذ البداية طابع الدين الذي يقوم على الدعوة ويسعى لجذب قلوب الناس لتحويلهم إليه، وحثهم على الدخول في زمرة المؤمنين، وكما كانت الحال في مبدأ الأمر كذلك ظلت على هذا النحو إلى اليوم.."[56]

ومعنى هذا أن النظام الذي جاء به الإسلام كان نظاماً انقلابياً على كل المستويات.. تغييراً شاملاً للعادات والتقاليد والممارسات والقيم والمثل والبنى الاجتماعية، وصياغة عالم جديد بالكلية. وها هنا أيضاً نلمح (أرنولد) وهو يرّد بالدليل المقنع، ما أثاره ويثيره بعض الباحثين، لهذا الغرض أو ذاك، من أن الإسلام يمثل، بشكل من الأشكال، امتداداً للحياة العربية مع لمسات من التبديل والتغيير هنا أو هناك..

والحال على خلاف هذا الاستنتاج الخاطئ تماماً، و (أرنولد) يشير بوضوح إلى أنه لا يمكن أن يغيب عن البال "كيف ظهر جليا أن الإسلام حركة حديثة العهد في بلاد العرب الوثنية، وكيف كانت تتعارض المثل العليا في هذين المجتمعين تعارضاً تاماً. ذلك أن دخول الإسلام في المجتمع العربي لم يدل على مجرد القضاء على قليل من عادات بربرية وحشية فحسب، وإنما كان انقلاباً كاملاً لمثل الحياة التي كانت من قبل.. وأصبح النبي ﷺ بذلك رمزاً لأسلوب جديد."[57]

---

[55] الدعوة إلى الإسلام، ص 48 - 50.

[56] المرجع نفسه، ص 62.

[57] الدعوة إلى الإسلام، ص 61.

3 – العبادة:

وعن العبادات الإسلامية يتحدث (توماس أرنولد) كذلك فيؤشر على بعض ملامحها الأساسية التي تجذب نظره كباحث خارج دائرة الإسلام.. وإذا كان كثير من المسلمين أنفسهم، ربما بسبب الاعتياد والتكرار والقرب، قد فقدوا القدرة على الاكتشاف والانبهار عبر مساحات واسعة من ممارساتهم الشعائرية التي أريد لها أن تقدح في وجدانهم وعقولهم، باستمرار، الدهشة والتأثر والانفعال، من أجل أن يكون تواصلهم مع الله سبحانه أشد فاعلية وتألقاً.. فان غير المسلمين ممن يملكون رؤية نافذة، قد يقومون بالتذكير بنقاط الجذب والإثارة في هذه الشعيرة أو تلك من شعائر الإسلام. ومن ثم نجد كيف أنهم يركزون على أثر العبادة على "المشاهد" فضلاً عن المتعبّد نفسه.

عن الصلاة مثلاً، يلحظ (أرنولد) كيف أن أداء الصلوات الخمس كل يوم يملك جانباً عظيماً من التأثير، سواء في جذب الناس، أو الاحتفاظ بالمسلمين منهم، وهو يتذكر عبارة (لمونتسكيو) في كتابه المعروف (روح القوانين) يقول فيها "إن المرء لأشد ارتباطاً بالدين الحافل بكثير من الشعائر منه بأي دين آخر أقل منه احتفالاً بالشعائر، وذلك لأن المرء شديد التعلق بالأمور التي تسيطر دائماً على تفكيره." هذه المقولة تنطبق أكثر مما تنطبق على الدين الإسلامي "الذي يتمثل دائماً في مخيّلة المسلم" من خلال الشعائر المتصلة التي تكاد تغطي مساحات واسعة من وقته: "وفي الصلوات اليومية يتجلى هذا الدين في طريقة نسكية خاشعة مؤثرة لا تستطيع أن تترك العابد والمشاهد كليهما غير متأثرين. فإذا استطاع (رينان) أن يقول في كتابه (الإسلام والعلم) المنشور في باريس عام 1883م: "ما دخلت مسجداً قط دون أن تهزني عاطفة حادة، أو بعبارة أخرى، دون أن يصيبني أسف محقق على أنني لم أكن مسلماً." كان من اليسير أن ندرك كيف أن منظر التاجر المسلم في صلاته، وسجداته الكثيرة، وعبادته للإله الذي لا يراه، في سكينة واستغراق، قد يؤثر في الإفريقي الوثني.. وقد يحفز حب الاستطلاع على البحث بطبيعة الحال "[58].

[58] المرجع نفسه، ص 458 – 460.

إن الصلاة تغدو، في تحليل (أرنولد)، وهو يخصص كتابه للدعوة إلى الإسلام، وسيلة مؤثرة في هذا السبيل، فضلاً عن وظائفها الغنية الأخرى. ونحن نتذكر في هذا السياق كيف أن العديد ممن انتموا لهذا الدين من بيئات حضارية متقدمة، انتموا إليه متأثرين بنظمه التعبدية، وبالتأثيرات الباهرة التي تكهرب بها شعائره وجدان المتعبدين والمشاهدين على السواء.. فليس الأمر -إذن- بمقتصر على وثني أو إفريقي، ولكنه يمتد لكي ينقل شحناته إلى أناس من بيئات شتى.

و(أرنولد) يشير إلى أن كثيراً من الملاحظين أكدوا قوة تأثير الصلاة، لكنه يكتفي بأن ينقل كلمات أسقف مسيحي مشهور هو (الدكتور ليفروي) في كتابه (Mankind and the Church)، المنشور في لندن عام 1907م، وهي كلمات تحمل قيمتها بصدورها عن رجل دين نصراني، كما تحمل دلالتها الأكيدة فيما نحن بصدده "فما من فرد يتصل بالمسلمين لأوّل مرة، إلاّ أخذ بمظهر دينهم هذا.. وحيثما يمكن أن توجد، في الطريق العامة، أو في محطة السكة الحديدية، أو في الحقل، فان من أكثر الأشياء شيوعاً أن ترى الرجل منهم، يترك في اللحظة التي يقوم فيها بأداء أعماله أياً كانت، بدون أدنى تأثر بالرياء أو الظهور، وفي سكينة وتواضع، لكي يؤدي صلواته في أوقاتها المحددة. وأكثر من ذلك، أنه ما من فرد رأى يوماً ساحة الجامع الكبير يوم الجمعة الأخيرة من شهر رمضان وهي غاصة بما يربو على 15000 مصلٍّ، وكلهم جميعا منهمكون في صلاتهم، مظهرون أعمق آيات الإجلال والخشوع في كل إشارة يبدونها،ألاّ تأثر تأثراً عميقاً بهذا المشهد، أو أخذ فكرة عابرة عن تلك القوة التي ينضوي مثل هذا النظام تحت لوائها. على حين نجد النظام الدقيق الذي يتجلى في دعوة الناس اليومية إلى الصلاة، عندما يؤذن الداعي في وقت السحر، قبل أن يتنفس الصبح، أو بين ضوضاء ساعات العمل وضجيجها، أو عندما يرخي الليل سدوله كذلك، مفعماً بتلك الرسالة ذاتها."[59]

أما الصيام فإن (أرنولد) يجد فيه تأكيداً لمبدأ الإسلام في التوازن بين الروح والجسد واحتوائه هذه الثنائية التي مزقت الإنسان في الأديان والمذاهب الأخرى، كما

[59] الدعوة إلى الإسلام، ص 459، الهامش رقم 2، عن:.G. A. Lefroy: OP. Cit., P. 287-288

يجد فيه دحضاً عملياً للقائلين بأن الإسلام قد جنح باتجاه الحس، مدفوعين بطبيعة الحال، برؤية النصرانية الجانحة في أساسها "فلا حاجة إلى القول بأن صيام شهر رمضان جزء من دليل ثابت يدحض النظرية القائلة بأن الإسلام نظام ديني يجذب الناس عن طريق مراودتهم في ملذّاتهم الشخصية، وكما قال (كارليل): (إن دينه ليس بالدين السهل، فانه بما فيه من صوم قاسٍ، وطهارة، وصيغ صارمة، وصلوات خمس كل يوم، وإمساك عن شرب الخمر، ليس ديناً سهلا).."[60]

كما أن (أرنولد) يجد في الزكاة دلالة وتأكيدا لمبدأ الإسلام في العدل الاجتماعي والمساواة، ففي إيتاء الزكاة "نجد فرضاً آخر يذكر المسلم دائما بقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ (الحجرات: 10)، وهي نظرية دينية تتحقق على صورة رائعة تبعث على الدهشة في المجتمع الإسلامي.. ومهما يكن جنس المسلم الجديد ولونه وأسلافه، فانه يقبل في زمرة المؤمنين، ويتبوّأ مكانه على قدم المساواة مع أقرانه المسلمين."[61]

ويجيء الحج لكي يؤكد مبدأ المساواة هذه في وحدة المسلمين وحياتهم المشتركة، ويمنحها فرصة دورية للتحقق والتأثير، بعيدا عن حواجز الجغرافيا، وعوائق الجنس واللغة واللون.. إنه "ينبغي ألاّ يغرب عن الأذهان أن الحج قد اقترن بإبراهيم (عليه السلام). ولكن فوق ذلك كله – وهنا تكون أهميته العليا في تاريخ نشر الدعوة في الإسلام – ينظم الحج اجتماع المؤمنين في كل سنة، على اختلاف شعوبهم ولغاتهم، من كافة أنحاء العالم، للصلاة في ذلك المكان المقدس الذي يولون وجوههم شطره في كل ساعة من ساعات عبادتهم الخاصة في أوطانهم النائية. ولم تستطع أية محاولة يقوم بها عباقرة أي دين أن تتصور وسيلة أحسن من هذه الوسيلة تطبع في عقول المخلصين معنى حياتهم المشتركة وأخوّتهم التي ارتبطت بروابط الدين. وفي ذلك المكان، حيث نجد عملاً سامياً من أعمال العبادة المشتركة، ترى زنجي ساحل إفريقية الغربي يلتقي بالصيني من أقصى الشرق، ويتعرف التركي الرقيق المهذب على أخيه المسلم من أهل الجزائر الذين يسكنون أبعد أطراف بحر الملايو. وفي هذا الوقت نفسه تتطلع قلوب

[60] المرجع نفسه، ص 460.

[61] الدعوة إلى الإسلام، ص 457.

المؤمنين في كافة أنحاء العالم الإسلامي، في عطف وحنين إلى إخوانهم الأسعد حظاً منهم، الذين تجمعوا في المدينة المقدسة، فيحتفلون في أوطانهم بعيد الأضحى. وان زيارتهم المدينة المقدسة قد أصبحت في نظر كثير من المسلمين التجربة التي حثتهم على الجهاد في سبيل الله.."[62]

ثم يحاول (أرنولد) في نهاية الأمر، أن يستخلص المؤشرات الأساسية العامة للشعائر الإسلامية كافة، صلاة كانت أم صياماً، وحجاً أو زكاةً، فإذا به يجدها يسيرة سهلة، لا توقر كاهل المسلمين بما لا يطيقون، ولا تسعى إلى إبعادهم عن مجرى الحياة اليومي، رغم أنها، من جهة أخرى، وعلى خلاف سائر الديانات، تتوغل في صميم هذه الحياة اليومية، تتشابك مع دقائقها وساعاتها ومفرداتها، وتمارس حضوراً متواصلاً يجعل المسلم في حالة تذكر دائم لله، وللعقيدة التي ينتمي إليها، وما يتمخض عن هذا وذاك من مطالب والتزامات.. هذا إلى ما تتميز به هذه الشعائر من دقة وواقعية وتساوق مع مطالب العقل ومعطيات المنطق الموزون، فلنستمع إلى ما يقوله (أرنولد) عن العبادة الإسلامية في ختام رحلتنا هذه معه: "إن هؤلاء المسلمين يعنون بتلك الفرائض وغيرها من الشعائر الدينية، ولكن من غير أن يثقلوا بها كواهلهم، أو تجعلهم مغمورين في الحياة، نجد أركان العقيدة الإسلامية تلقى دون انقطاع تعبيرا ظاهراً في حياة المؤمن، ومن ثم نجدها، بعد أن أصبحت متشابكة مع نظام حياته اليومية، تشابكاً لا سبيل إلى الفكاك منه، تجعل المسلم الفرد إماما ومعلّماً لعقيدته، أكثر إلى حد بعيد مما هي عليه الحال مع أنصار معظم الديانات الأخرى.. إن تحدّد هذه الطقوس وواقعيتها ودقتها ليدع المؤمن لا يتخالج في نفسه الشك فيما هو مكلف بأدائه، فإذا أدى هذه الواجبات اطمأن وجدانه إلى أنه قد أنجز كل أوامر الشرع. وقد نجد إلى حد بعيد، في هذه الوحدة التي تربط بين النظامين العقلي والطقسي في هذا الدين، سرّ السيطرة التي أحدثها الإسلام على عقول الناس. فإذا أردت أن تجذب إليك جماهير كبيرة من الناس، لقنهم الحقيقة في صورة حاسمة دقيقة واضحة، وفي أسلوب مرئي محّس..."[63]

---

[62] الدعوة إلى الإسلام، ص 457.

[63] الدعوة إلى الإسلام، ص 460، والعبارة الأخيرة ينقلها عن:
B. Keunen: *National Religions and Universal Religions*, London, 1882, P. 25.
وينظرفي المرجع نفسه، ص 454، الهامش رقم 3.